زوجة المرحوم

قصة بقلم

زوجة المرحوم

قصة

بقلم

ادمون صبري

مطبعة الوفاء ـ تلفون ٨٨٨٢٠
١٩٦٢

كانت معرفتي بالسيد محمد راغب لاتتجاوز معرفة الوجه بالدرجة الاولى وتبادل بعض تحيات المجاملة المقتضبة عندماالتقيه مع صديقه الحميم السيد جمال المفتش الصحي . كان هذا كل شيء ، فقد أضطررت غير مرة أن أزور صديقه وصديقي المفتش الصحي التمسه أن يزرق ولدي بأبرة فيفعل ذلك بهمة مشهودة وبمهارة رجل المهنة الممارس الخبير الذي سلخ نصف عمره فى زرق الناس بالابر . لا أذكر مرة أنني التقيت جمالاً في بيته أوفي الشارع أو المقهى دون أن يكون فى صحبة السيد محمد راغب ، وقد علمت عن طريق عرضي ان السيد محمد راغب يعمل محامياً ، ومع ذلك فلم يتضخم في عيني ولم أشعر تجاهه باي أعتبار أضافي لانه لم يبد في يوم من الأيام على شيء من الأهمية . كان عادي اللباس ان لم يكن دون مستوى موظفي الدولة الصغار ، اذ لم يكلف نفسه أن يظهر أنيقاً حليقاً حسن البزة . كان الغبار يلطخ حذاءه والتمعج بسود بدلته والاضطراب يعلو ياقته وربطته على السواء ، وهما وسختان في غالب الاحيان ، وان كان يحمل فوق رأسه لمة محترمة كثيفة من الشعر الا انها مشوشة على النحو الذي يبعد الظن ان يكون صاحبها فناناً ورجل فكر وعلم ، يحتقب محفظة رثة سميكة من الضرب الذي يستعمله الدلالون لحفظ الخرائط ومعاملات الطابو . وقد علمت فيما علمت انه ينتسب الى أسرة معروفة ثرية كريمة وله بين انسبائه أطباء ومحامون لامعون ورجال ادارة ومناصب ، ولم يحفل كل ذلك باهتمامي .

كان صديقاً حميماً لجمال أو لاقل بكلمة أوفى وأنسب ، انه صديقه الاوحد الوحيد المستأثر بكل أوقات فراغه . أجدهما غالباً يتسامران في المقهى وقد أنغمرا في حديث ودي بلغ بهما غاية الانسجام ولا أذكر انني زرت جمالاً فى بيته دون أن يكون محمد راغب أحد جلاسه أو جليسه الوحيد فأدخل أحييه وأخرج أودعه ولا أذكر مرة أنه أنصرف قبلي وان جلست بضع ساعات . أما شعوري تجاه

جمال المفتش الصحي فكان شعوراً طيباً رقيقاً ، فقد أختبرت الرجل عن كثب وفحصت خلقه وسجاياه فالفيته كريماً شهماً أنســـانياً من أولئك الناس الذين يعيشون ويموتون دون أن يزعجوا كائناً من الكائنات ، ومع انه كان موظفاً صغيراً محدود الموارد الا انه عفيفاً نزيهاً لا يهمه حتى ان زرق مئـات الناس بالابر من غير أجرة ، وكانت النساء وحتى الزوجات الشابات يأمننه ويرتحن اليه ويلتمسنه من أجل علاجهن ، كان الرجل يحظي باحترامي وأكباري حقاً ، فهو لا يتكلم الا بما يلزم ولا يدعي علمـــاً أو معرفة ولا يتبجح أويغالط فيما لا يعرفه ، يلوذ بالصمت أو بهز الرأس كمن يقول ـ عسى ان يكون ما تقوله صحيحاً ـ وان كان مبالغة وشططاً . كان مولعاً بالتدخين يستهلك علب السيكائر واحدة بعد أخرى دون ان يغفل جلاسه ومن حوله ، حاثاً أياهم بالحاح ان يدخنوا ، ومع ذلك فهو لا يخمر مطلقا وحتى في مناسبات الاعياد والاعراس والحفلات الصغيرة يتناول كأساً أو كأسين صغيرين محتفظاً بكامل وعيه يغني ويشترك مع الجوقة ويرقص مع الراقصين ويفرح ويبتهج دون أن تكون لتصرفاته أثر من آثار السوء على أحد .

في الطريق عندما التقيه مع صديقه محمد راغب يبادرني بتحية مشهودة حافلة يعقبها سؤال رقيق عن الصحة وأبتسامة رضية ترتفع على أثرها يده حتى تلمس شعرات رأسه الموخوطة بالشيب ، أما تحية محمد راغب فموجزة باردة تخرج من الشفاه وكأنه يقول ـ ليس من المستحسن أن أبقى صامتاً ـ .

زرت جمالاً ذات مرة في دائرته حيث كنت مريضا أشكو التهاباً في في الحنجرة وقد وصف لي الطبيب أبراً معينة أبتعتها من الصيدلي وحملتها معي اليه كي يزرقني بواحدة منها . وفي الدائرة لقيني مستقبلاً محتفياً وأجلسني الى جواره وأخرج علبة سيكائره ودفع الى اناملي واحدة ودعا لي الشاي وشرع يتحدث عن دائرته وشؤون عمله وعمل الدوائر الاخرى المتصلة بها ففهمت منه انهم يقومون

بتزويد شهادات وفاة لاولئك السيء الحظ الذين يموتون من غير معالجة طبيب وليس ثمة جريمة في وفاتهم قلت هازئاً ـ ليس ثمة جريمة وهم يتساقطون موتى من غير علاج ولا طبيب ـ .

لم يكن باستطاعة جمال ان يفسر معنى أن يموت الانسان من غير علاج ولا طبيب ومعنى ان يكون الموتى من هذه الشاكلة يحيون على حافة المجاعة ولا يملأون توابيتهم سوى في الطول . لم يكن راغباً فى التحدث فى الامور العامة كان يجد فيها منزلقاً الى المكروه ومع ذلك فهو يتألم ويسخط ويستنكر عن طريق شفتيه المضمومتين ورأسه المتذبذب وعينيه المعذبتين ، وقلما يفصح عن شي ، كان يردد عبارته في مجلسه الخاص كلما انتهى جليس من سرد حكايته البائسة ـ ليست هي المسالة الوحيدة ، ثمة عشرات سواها ـ

قال ـ ان عملنا يتم بتخصيص بعض المفتشين الصحيين للكشف عن الميتين وتزويد ذويهم بشهادات الوفاة قبل دفنهم على ان تكون الاسباب طبيعية محضة

سألته ـ وغير الطبيعية ؟

اجاب في هدوٴ استاذ عالم . ثمة حالات اخرى يموت فيها الانسان بتدخل من القدر او من فعل اخ له فينقل الميت الى الطب العدلى حيث ينظم عن حالته تقرير طويل مفصل . عن عمره وطوله وعرضه ولون شعره وعينيه وشكل ارديته وحال جسده عضواً عضواً الظاهرية والباطنية وحتى الامعاء والرئة والقلب ثم يبعثون به الى المحكمة التى سوف تنظر فى القضية .

ثم عقب باسماً ـ طبعاً التقرير يبعث لا الميت ولابد انك طالعت مثل هذه في الجرائد اليومية ، كل يوم عدد كبير منها ، هكذا يقولون نقلت الجثة الى معهد الطب العدلى للتشريح وبيان سبب الوفاة .

كان حديثه طلياً جذاباً بسيطاً كبساطة نفسه ، وعند خروجي الى باب

دائرته لقيت سيارة صغيرة تحمل على سقفها تابوتاً خشبياً رخيصاً مشدوداً بالحبال تقعد بداخلها أمرأتان ورجل ملثم الفم باطراف الكوفية التي تلف رأسه ، وقفت برهة انظر الى المفتش الصحي المربوع القامة ذي الرأس المصفح والنظرات الكاسرة وهو يأمر رجلين يقفان في حذاء السيارة أن ينزلا التابوت الى الارض فامتثلا أمره فى غير أرتياح وتقدما الى فك الحبال الغليظة ولما تم لهما ذلك انبثق من الشارع مستطرقان او ثلاثة تعاونوا جميعاً على حمل التابوت وانزاله الى الارض فرحت اراقب حركات المفتش الصحي وامائر وجهه على بعد خطوات وهو يتأمل في الشيء غير الهام المطروح فى التابوت وكأنما يتأمل فى زوج حذاء بال لم يعد يصلح لشيء .

بعد ايام مرض ولدي الصغير فراجعت الطبيب فوصف له الابر فالتمست أيضاً معونة جمال التي لا مفر منها في مثل هذا الحال ، اخذته امه في المساء فزرقه بأول ابرة وعادت به ، سألتها كيف هو حال سيد جمال قالت باسمة ـ في احسن حال وقد بلغني ان احمل اليك تحياته وتحيات زوجته . ثم سألت من كان هناك اجابت فى بداهة ـ من تظن انيكون سوى صديقه محمد راغب ـ وكنت واثقا من هذا الجواب فتساءلت في نفسي عن سر هذه الرابطة المتينة بين جمال المفتش الصحي ومحمد راغب المحامي . اعرف ان جمالا ليس من رجال القانون بالمرة وبعيد عن المحاكم وليست لديه اية ثقافة كاملة في موضوع من الموضوعات ولم يقدر لي في يوم ان اسمع نوع الحديث الذي يدور بين هذين الرجلين ، اجد محمد راغب في الغالب يكاد يكون صامتا ينهمك طيلة الوقت في تدخين السكائر وتحريك ساقيه والتعوذ بالله لغير ما يقتضي المقام والتظاهر بالتفكير المهموم المتعب ويتفرغ جمال للتحدث دون ان يحاول ادنى محاولة أشراك محمد راغب فى الحديث كما لم اجد مريم وهي زوجة جمال ـ ذات شعر كثيف محنى تحنينا شديدا حتى ليضرب

لونه الى لون الحديد العتيق الصدىء وينطلق من فمها صوتاً خشناً مبحوحاً كصوت الرجال المسرفين في التدخين - تشغل طرفاً ثالثاً فى هذه الصداقة وكنت الاحظ انها تعامله معاملة رقيقة وتستقبله في غياب زوجها حيث تجلس قبالته على كرسي يبعد عن مكان جلوسه مسافة غير قريبة ويبدو انها على معرفة بزوجته واولاده واحداً واحداً ويدور الحديث بينهما عن شؤون العائلة لا غير

وفجأة وعلى غير توقع ولا أنتظار وبمثل الصاعقة التي تنقض على الناس وهم في أمن شامل بلغتني زوجتي ان جمالا قد مات فانصعقت في مكاني مذهولا وهتفت في جزع - كيف يمكن ان يموت انني رايته قبل ايام قليلة وجالسته وكلمته وانصرفت عنه وهو فى صحة لا تشوبها شائبة - فأجابت زوجتي مؤكدة هي ولا تقل جزعا واسى عني - بل انا التي حملت ابننا اليه في الامس الاول وزرقه بالابرة وكان بشوشا متفائلا دائم الابتسام كانه يبعد عن الموت الاف الاميال - تنهدت وقلت حقا ان الانسان اشبه بالاعمى لن يدرى في اى الحفر تزلق قدمه ويتحطم . المني الخبر ايما ايلام وكانما اخى الوحيد هو الذي مات . حزنت كثيرا لوفاة جمال وامتلات مخيلتي لبضعة ايام بصورته المبتسمة الوديعة وفمه الدقيق المنفرج عن اسنان طويلة لانحسار اللثة وتكاد تكون صفراء لسبب لا اعلمه وشعره الموخوط بالشيب توخيطا شديدا وقامته الحسنة بل وصوته وكلماته ومجاملاته ذات الرنين العتيق الذي شاع في القرن المنصرم مثل راعي السلام سالم عندما يحمله احدهم تحية لصديق ، او كلمة هنيئا عندما يفرغ جليسه من شرب قدح ماء ، وبالافراح عندما يتم شرب فنجان القهوة في بيت مضيفيه وله كلمات خاصة اخرى يرددها ايام الاعياد وفى مناسبات العرس والفرح والتعزية

خففت من ساعتي للذهاب الى بيته واستطلاع جلية الخبر اذ كانت حواسي جميعا ترفض تصديق وفاة جمال وكنت انا ايضا بعقلي الواعي ارجو ان يكون

الامر اشتباه او كذبة ، وحين بلغت الزقاق الذي يوصل الى بيته صرت أتطلع بامعان الى اصحاب الدكاكين الذين يعرفون جمالا معرفة اكيدة ويرونه في اليوم عدة مرات رائحاً غاديا بين دائرته والبيت ولكنني لم الحظ شيئاً غير عادي،فالزقاق نفسه بضجيجه واناسه واشيائه التي اعتدت رؤيتها في كل زيارة ومع ذلك فقد مضيت بخطو غير متريث ، وعند الباب بلغ اذني العويل النسائي الموجع الذي يألفه المرء في بيت الميت . كان عويل زوجته مريم واضحاً ناشزا عن سواه من الاصوات بسبب خشونته وبحته وعمقه وكأنه يصدر من انبوب عريض كثير الثقوب فوخز قلبي وادماه . اتخذت سبيلي بين جمع صغير من المعزين وجلست الى جوار بعضهم وقد ران على الوجوه حزن واسف ملحوظان . واصلت زوجته العويل بنبرات اعلى حال ان لمحتني ادخل ، وتلك عادة متبعة عند دخول اصدقاء الميت ، وراحت الارملة تعدد مناقب زوجها وترثيه سمعتها تتهدج باسم الرجل الكريم الذى لم يعكر صفو احد ، صدقت دعواها وهززت رأسي وغلبني الحزن فانهمرت من عيني دمعتان كبيرتان شوشت الرؤية امامي فأسرعت بمحوهما بالمنديل . مرت بضع دقائق سوداء قاتمة لم انظر حوالي ولم اتبين وجوه الناس الجالسين الا ان محمد راغب برز فجأة امام عيني . كان قد جلس على مقربة دانية مني في حالة وجوم وذهول شديدين ، قد نزلت عليه الكارثة نزول المطرقة ، يسحب من سيكارته انفاساً ثقيلة وينفث دخانها عند قدميه فزادني مشهده حزنا على حزن . وكان هو الشخص الوحيد الذى يذكرني اوضح ذكرى بكل ما امتاز به جمال من رفعة الخلق والكياسة واللطف . رايت في محمد راغب نصفه الذي قد مات ورفيقه الذى لا يغيب عنه يوما واحدا . مضت دقائق اخرى وكنت ارجو ان تقع على عينا محمد راغب فاستطيع مخاطبته وتعزيته والتزود بأخبار تفصيلية اخرى عن وفاة جمال ، غير انه لم يلتفت نحوى مطلقا فاهملت امره ورحت انصت الى عويل

النسوة ومراثي احداهن وهي مكلفة باستدرار الدموع عن طريق الندب والتفجع وفجاة أنتصت امامى محمد راغب وبيده علبة سكائر قائلا :

ـ تفضل

رفعت اليه عيني وشكرته فتنهد وقال ـ دخن ـ فامتثلت امره وتناولت واحدة وتنهدت جواباً على تنهدته ثم بحث عن مكان الى جواري فوفق الى ازاحة احد الجالسين وجلس مكانه ، شعرت لاول مرة انني احمل عاطفة ما لمحمد راغب وانه قد غدا صديقي اللحظة كما لم يغد من قبل ، كما شعرت بالرثاء لحاله فهو اشد مني التصاقا بجمال وادنى مودة قلت ـ نكبة لا تنسى . . . حينما بلغني الخبر انهزت هزا ولم ابطأ فى القدوم واستجلاء حقيقة الحادث ثم قلت بنبرة حزينة ـ انني رايته اخر مرة قبل نحو اربعة ايام في الصباح وهو في طريقه الى الدائرة فحييته وصافحته ولم ادر علام نظرت مليا الى وجهه النحيل وتاملت في اسنانه ، لربما كان هاجسا يهجس فى صدرى اننى اراه لاخر مرة ـ هز محمد راغب رأسه فى أسى، ثم واصلت حديثي وسألته كيف بلغه الخبر

قال ـ كنت في طريقي الى المحكمة لحضور بعض المرافعات وقد حملت معي حقيبتي ، وعند مفرق العلوية لقيني أحد أقرباء جمال وانا أعرفه معرفة يسيرة فتقدم نحوي وبادرني بحديث استهلالي عن جمال . سألني متى رأيته آخر مرة قلت ليلة أمس ، قال الم تسمع ماحدث . أجبت لا . قال اذن اذهب اللحظة الى بيته فانه ينتظرك هناك لامر هام . وجدت ان الحديث كله غريب ومريب ، سألته بحدة ـ قل لي ما الخـــبر ؟ أجاب متلعثما انه مريض جدا ويريد مقابلتك صحت به منتهراً اياه ـ اني ذاهب الى المحكمة ولدى اعمال أخرى وانت تناور وتداور . افهمني ما الذي حدث ـ فاضطر الى الافصاح في اخر الامر ، وقال ان جمالا قد مات صباح اليوم بالسكتة القلبية وفي الدائرة ـ على اية حال استشعرت الدوار

وانسدلت امام عيني ستارة صفيقة رأيت ألدنيا من خلالها كالحة بائسة مغبرة كما لو ان مدينة بغداد تهدمت وابتلعها بركان هائج . مضيت الى المحكمة متعجلا ، فانهيت بعض اعمالي واجلت البعض الاخر وانا لا أكاد أصدق، اذ وجدت في تصديق النبأ تحطيم اعصابي كلية ، فاستاجرت سيارة وجئت الى هنا ولا استطيع ان اصف لك حالتي . كان جمال قد مات حقاوقد رأيت التابوت بعيني كما رايت الشيء العزيز جدا يحمل من الفراش ويوضع في ذلك التابوت . في الحق انني لم استطع احتمال قسوة المشهد ، فتقهقرت وراء ظهور النساء خشية ان انهار واقع على الارض . وانك لا تعلم انني اعاني ضعفا في الاعصـــاب واملك قلبا كسيراً يخفق بشدة عند الانفعال فيجعلني اترنح واوشك على الاختناق . ولذا لم احتمل رؤية المشهد المؤثر ولذا لم تقع عيناى على جمال وهو ميت ومع ذلك خرجت مع المشيعين فى سيارة ومضينا الى المقبرة ـ ثم غلبته عاطفة نبيلة فاجهش بالبكاء . فدمعت عيناى من جديد واطرقت الى الارض . تمتم محمد راغب ـ كان يفهمني ويشجعني في اعمالى ويدفعني الى المثابرة وقد نلت بفضل توجيهاته نجاحات كبيره ، ولكن يا للاسف لقد فقدته .

علقت بذهنى عبارته الاخيرة ما الذى يقصده بانه يدفعني الى المثابرة . ان محمد راغب محام ولا شيء آخر ، وان جمالا مفتش صحي ولا شيء آخر . وان شئت الموازنة بين ثقافة الرجلين لرجحب ثقافة محمد راغب على ثقافة جمال باعتباره رجل قانون وخريج مدرسة عالية ، بينما جمال موظف صغير محدود الايراد. انتظرت ان يتواصل الحديث وأصل الى ايضاح شاف

كان المعزون يدخلون فرادى وجماعات يؤدون الصلاة ويحتسون قليلا من القهوة المرة ويتناولون سكارة واحدة ينهمكون في مص دخانها ويرفع محمد راغب

يديه بالسلام محيياً الداخلين حالما يستقر المجلس بهم ، كانوا يتبدلون بطبيعة الحال بيننا نحن الاثنين أنتحينا جانبا قد غمرنا الحديث المهموس الخافت نوصل سيكارة بسيكارة كما يفعل الناس في مجالس العزاء يبلغ اذنينا بين الحين والحين همهمات وسعال وترديد بعض الحكم التي تذكر الانسان بالفناء والتحدث عن بهرج الحياة الدنيا التي لاتساوى نقيراً تجاه الموت القهار . ولا ريب ان جمالا قد خلد في اذهان معظم الجالسين ذكرى محمودة مشكورة قال محمد راغب ـ لا قيمة للحياة بينا الانسان يسعى سعياً محموماً وبلا هوادة في سبيل ارباحه ومكاسبه ، وفي الحقيقة كل انسان مهما ضؤل قدره وقل جاهه فانه يكسب عيشه لا محالة . ولا تمضي عليه ليلة واحدة دون ان يجد لقمة يسد بها رمقه ، وضرب لي مثلاً خطيراً . قال أنني اشتريت قبل فترة قصيرة من الزمن بيتاً كبيراً جديداً وحدث بعد أنتقالنا اليه ان اكتشفنا جرذاناً كثيرة تسرح وتمرح في غرفه ومطبخه وسردابه ومرافقه الاخرى . فألحت على زوجتي ان ابتاع مصيدة او سموما اقضي بها على الجرذان فرفضت ، قلت لها ان الجرذان مخلوقات مثلنا وهي تسعى الى قوتها كما يسعى الادميون فلا يصح ان نمنع عنها رزقها ونعرضها للمجاعة أو الموت ، وعليه لم أبتع مصيدة ولا سموماً ، وتركت الجرذان تجول بكامل حريتها في ارجاء البيت . ولم تستطع زوجتي معارضتي ، بل وجدتها بعد حين قد اقتنعت بصواب رأيي وصارت تقدم للجرذان الطعام اللازم في أطباق خاصة واكتشفنا بعد حين أسراباً من النمل تتسلق الجدران للوصول الى صحون الطعام الدبقة ، فهمت زوجتي ان تسحق النمل كله فمنعتها منعاً باتاً ورجوتها ان تبعد صحون الطعام الدبقة عن الغرف التي تخشى عليها من هجوم النمل وقد نجحت الخطة وابتعد النمل سالماً دون ان نفتك بنملة واحدة .

لم اجادل محمد راغب في هذا التخريج الشاذ للابقاء على حياة حيوانات ضارة اجمع العالم كله ومنذ مالا يحصى من القرون على ضرورة ابادتها ومحاربتها انما تزاحمت

في رأسي علامات استفهام كبيرة عميقة . ترى أي مذهب يدين به هذا الرجل . أقررته على ماذهب اليه رجاة ان أصل الى اغوار نفسه قلت مؤكداً -من غير ريب انها مخلوقات قد تكون عزيزة على من خلقها لايجوز ان نسفك دماءها مادام بالامكان عزلها في مكان خاص ، ونطلق لها سبل العيش ولا احسب ان الارض تضيق بها ولن تخلق لنا مجاعة .

هز محمد راغب راسه مؤيدا كلامي مع شيء من الابتهاج -قال ان جمالا كان يذهب معي هذا المذهب ويؤيدني - الا انني لا اذكر قط ان جمالا ذكر شيئاً عن شفقته بالجرذان والنمل ويجعلها تسرح وتمرح في بيته ولا يمسها بسوء ، ولا يمكن ان يصدر عنه مثل هذا الرأى وهو مفتش صحي ويعمل في حقل الطب وحفظ صحة الناس من المرض .

ولا ادري كيف عرج بالحديث عن الذرة فاعلن في اقتناع -ان عالم الذرة الحقيقي هو رجل عربي ولد في الاحساء قبل مائتي سنة واسمه احمد الاحسائي وليس سواه كما يدعى الاوربيون ولدى ابحاث في الذرة وضعها هذا العالم الكبير تثبت قيمة بحوثه وتجاربه والنتائج الباهرة التي توصل اليها في علم الذرة .

سألت - انت تبحث في العلوم ؟

اجابني اجابة العارف الخبير - اجل ابحث منذ زمن بعيد قد يبلغ خمسة وعشرين عاما .

فداخل ذهني ان الرجل يبحث في موضوع من موضوعات القانون وليس هذا بكثير على محام سلخ في المهنة عشرين عاما

قلت - من غير ريب أنك تبحث في أمور حقوقية .

اجاب في انكار - كلا بل أنني ابحث في الميكانيك .

استغربت - كيف ، انك محام ، ما الذى يدعوك الى الاشتغال فى الميكانيك

وليس ثمة تقارب بين الحرفتين ،وفى ايضاح مسهب على طريقتة استطرد يقول- انني درست الميكانيك منذ زمن طويل ، واعرف كل شيء عن المكائن والالات وطريقة تشغيلها والاعمال التي تؤديها مع تركيبها واصلاحها ومع مايتعلق بها من نظريات ودراسات . كما انى درست دراسة مستفيضة لعلم المثلثات ، وعلى هذا العلم بنيت اختراعي .

وهكذا انتهى المحامى ان يكون مخترعا لالة من الالات الميكانيكية فكتمت دهشتي بعد ان وجدت ان الدهشة لا اعتبار لها في فيض مفاجأته الكثيرة قال متأسفاً - كان جمال على علم بتجاربي ، وقد اريته كل شيء وكشفت له اسراري ففهمها واقرها وشجعنى على المواصلة في اعمالي ، واستطرد يقول فى تأثر . كانت له نظرات صائبة جدا ، فقد اخذته الى بيتي عدة مرات ومكثنا عدة ساعات نبحث فيموضوع اختراعي ، وقدأريته بعض التصاميم لالة تعمل من غير وقود ، بل بقوة الاندفاع الذاتي ، واقتنع تمام الاقتناع بنجاح الفكرة . . . . ولكن من يصدق ،انني اخشى ان اتحدث لاحد من الغرباء لئلا يتهمني بالجنون وفعلا قد يقولون عني انه مجنون .

طمأنته وانا اصطنع المراوغة-لاتكترث ، لاتتحدث في موضوعكالا الى عالم من العلماء . . . انك لن تجد تاييداً وتشجيعاً لا من طبقة العلماء امثالك ، أنهم يفهمون مزايا كل اختراع واهميته ومكانته بين العلوم التطبيقية .

قال متحيرا - انى سافعل ولكن أنى لي بالعالم الذى استطيع ان ابوح له باسرار اختراعي . . . سيتهمنى بالجنون بادىء الامر والناس جميعايذهبون مذهب العالم ولايذهبون مذهبي لأنى لم أعرف بين الناس ميكانيكياً اشتغلبالاختراعات ، ولكن بعد اعلان اختراعي واثبات حقيقته استطيع ان اتهم ذلك العالم انه مجنون ويؤيدني الناسلانني اكون قد حققت منفعة كبرى للبشرية وخدمت علم الميكانيك

خدمة مشكورة وساهمت في تطوير العلوم الطبيعية ووفرت من جهود الانسان ما قيمته ملايين الدنانير فيالعام الواحد . ووجدت في آخر الامر ان جلستي قد طالت اكثر مما ينبغي واننا الاثنان قد انعزلنا عن مجموع المعزين انعزالا تاماً ، واصبحنا موضع تساؤل ، فوجدت من الخير ان اتركه وانصرف فقطعت عليه الحديث بلباقة وانا ابتسم له ابتسامة تشجيع وخلفته في مكانه وهو يتميز شوقاً لمواصلة الحديث عن اختراعه المزعوم .

مضى نحو اسبوعين لم تقع عيناي على محمد راغب المحامي ، وحسبت ان علاقتي به قد انتهت ان كان ثمة علاقة ، فانا لستصديقه قبلا انما صديق صديقه او صديق صديقي كما ان صداقتي بالمرحوم جمال كانت محدودة الجوانب وليس لها جذور عميقة انما الذي حببه الي هو طيبته وصدقه ومحبته للناس وهي مزايا محموده لايبخس قدرها احد ، اما ما خلاذلك فلا اعرف عنهايما شيء . وفي اليوم الذي لقيت به محمد راغب وتحادثنا كل ذلك الحديث الطويل كان بدافع الاسى للصديق الذي فقد صديقه ، وخرجت منه بنتيجة أن محمد راغب ليس في تمام عقله أو لعله عالم حقاً ولكنني لم أستطع سبر غور علمه . وقد أكون ذا علم قليل في القانون وأصول المحاكمات وتصنيف الدعاوي وأنني قد حضرت بعض المحاكمات أيام تعطلي وبطالتي لقضاء الوقت والتفرج على المتشاجرين والسراق وهم يستجوبون في قفص الاتهام ، كما انني درست المثلثات أيام صباي وكيف نستخرج أرتفاع مئذنة ونحن نقف بعيداً عنها بواسطة الزوايا والأبعاد ولكن الشيء الذى أجهله تماماً هو الميكانيك فلم أحس في يوم انني أرغب في الألمام به حتى أنني لا أعرف قيادة سيارة ، وأيام تقام المعارض الأجنبية والوطنية ويؤتى بآلات هائلة مذهلة تصنع الاعاجيب يعرضونها الملأ ، لم اتقدم اليها ولم تستهوني أنما أنظر لها عن بعد وأمضي في سبيلي ولذا أمضيت حياتي كلها وأنا أجهل

الميكانيك حتى أبسط قواعده ، وعندما ابلغني محمد راغب انه يبحث في موضوع الميكانيك منذ ٢٥ عاماً وتوصل الى أختراع هام في تسيير آلة بقوة الاندفاع الذاتي من غير فحم ولا زيت ولا كهرباء ، وقد المح لي غير مرة أن جمالاً كان عليماً ببحوثه وكان يفهمه ويشجعه ويعينه ، فلم أستطع ان أفسر هذا الزعم .

لقيت محمد راغب مرة أخرى مصادفة . كان يمر بباب بيتي وكنت أنا في أحدى الغرف الامامية أنظر عبر نافذة الى المارة في الشارع . مر محمد راغب بخطو وئيد عليه أمارات الحيرة والحزن ، قد شد الى عنقه ربطة سوداء زاهية كبيرة ينظر الى النوافذ والابواب نظرة مستطلعة كمن يبحث عن شخص أو مكان ، ورأيته مرة أخرى بعد عشر دقائق يعود القهقرى تحت نافذة غرفتي تماماً وقد تطلع فعلاً الى النافذة وكان يمكن ان يراني لولا الشبكة السلكية الكثيفة التي تصدم البصر من الخارج . قلت لاخرج اليه وأساله . كانت بقية من أشفاق تعتمل في صدري تجاهه ، فقد غدا بنظري أشبه بالأرمل او الارملة بعد وفاة صديقه . ولم يدر بخلدي انه يبحث عني . خرجت اليه وناديته متلطفاً عليه بالاستاذ تبجيلا لحرفة المحاماة المرموقة فاستدار نحوي وأبتدرني في أرتياح ـ انتم هنا كدت أنسى بيتك ـ أجبته وأنا أفسح له المجال للدخول ـ كيف علمت انني أسكن هنا ؟ قال ـ أعرف جيداً لقد مررت بهذا الشارع كثيراً بصحبة جمال ونحن في طريقنا الى المقهى وأذكر أنه أشار مرة الى بيتك وقال هنا يسكن ـ ولم يذكر أسمي ـ وحال ان جلسنا سألته مبتسماً .

ـ كنت تقصدني ام صدفة ؟ أجاب مداعباً .

ـ تستطيع أن تجمع بين القصد والصدفة ـ ثم أستطرد في جد بعد فترة صمت قصيرة ـ الحق انني كنت أرغب في لقائك ، فقد سرتني محادثاتنا ذلك اليوم

ووجدتها ممتعة وذات نفع . . انني أشكرك،تمتمت في استغراب ـ تشكرني من أجل أي شيء .

تمهل بعد تفكير وأجاب في اناة وتوكيد ـ انت أرحت اعصابي وواسيتني وخففت عني مصابي الاليم وأبديت اهتماماً في موضـــوع دراساتي ـ ولم يقل أختراعي ـ وأظن انك كونت فكرة لابأس بها فيما انا أتوفر على انجازه في هذه الايام . كان جمال رحمه الله مثلك في هذه الخصال يفهم ويشجع ولا يبخل بمعونة ثم أستطرد بصوت متهدج ـ كان قلبي كله يرتاح اليه وأسفاه ـ سالت على اجفانه دمعتان أنتشرتا على حفافي عينيه وجعلتهما بلون الزجاج ، إلا أنه تماسك عن البكاء فحولت عنه ناظري والتزمت الصمت ، قال ـ بالامس حاولت أن أجلس في المقهى الذي أعتدنا الجلوس فيه فلما بلغت المصطبة لم أستطع أن أدنو منهـا وأجلس ، شعرت أنها تزجرني وتكاد تلتهمني فمضيت مسرعاً وأنا أعالج دموعي لئلا تنهمر .

قلت مواسياً ـ أنك رقيق العواطف الى حد المرض .

أكد بقوة ـ فعلاً مرض ، لقد أوقفت تجاربي منذ وفاته ولم أعد أدخل الغرفه المعدة لاعمالي ، أقفلتها وأخفيت المفتاح في مكان ما في بيتي . وانني صرت أشعر بالفراغ المضني والتراخي والكسل والذهول كأنني قد تهت حتى عن معرفة نفسي .

وجدت أنني ذا نفع لهذا الحائر الولهان ، وأستطيع التسرية عنه ولو ليوم واحد ، ولن يلزمني لاداء هذا الفضل سوى مجاراته والتلطف معه وتقبل دعاواه . قلت له انني سأخرج معك هذا اليوم فنتجول حيثما تريد ونعود في الليل .

أنبسطت أسارير محمد راغب وبان فيحركاته الانشراح والرضا . كان الوقت مساء من الأيام التيتسبق الخريف وتعقب الصيف ارتديتملابسي

وأصطحبته معي الى الشارع، لحظت انه يتجه الى المقهى ، فلم أعارض بل تركته يتجه حيث يشاء فانني متطوع لمرافقته الليلة بطولهـــا . بلغنا المقهى ومضينا عبر المصاطب وهو يتقدمني وأنا من ورائه كآلة صماء مسحوبة قال ـ ها هنا مكاننـا المفضل هيا لنجلس ـ فأمتثلت أمره وجلست .

كنت قد رأيتهما غير مرة يجلسان فيهذه الزاوية الظليلة المنعزلة ولاحظت أنه عمد أن يجعل مكاني فى الجانب الذي أعتاد جمال أن يشغله ، كما لاحظت أنه أتخذ هيئته الطبيعية مبتسماً بين شاربيهأبتسامته المعهودة فيالأيام الخوالي عندما يكون بصحبة جمال . لم يرفع ناظريه نحو وجهي انما خفض رأسـه الى الارض وواصل ابتسامته العريضة ، خيل الى انه يستحضر صورة جمال في ذهنه ، ثم أفاق بغتة من ذهوله وقال ـ منذ الحادث لم أفعل شيئاً هاماً ولم أتقدم خطوة واحدة فقد تركت كل شيء على حاله .

سألته مشفقاً ـ هل تحتاجني لشيء ؟ لعلي أستطيع معونتك . أنك تعمل في الميكانيك كما تقول ولو أنني غير ذي أطلاع فى هذا الموضوع .

قال بأنشراح ـ هذا فضل كبير ، وهو الامر الذي أريدك أن توأزرني به الا ان ذلك لا يتم ونحن جلوس في المقهى .

أستفسرت ـ كيف اذن ؟ قال ـ تتفضل معي الى البيت فأريك مخططاً للجهاز الذي أعتزم صنعه كما أريك بعض الادوات الصغيرة التي صنعتها بنفسي من أجل أن يتركب من مجموعها الجهاز الكامل .. على أية حال لنسترح قليلاً .

جلسنا نحو نصف ساعة لا نجد مناصاً من التحدث عن جمال ، فعـــاد محمد راغب يرثيه ويعدد مناقبه .

قلت في ضجر ـ تلك مشيئة الله وهي بالوقت ذاته سنة الحياة . موت وحياة

وحياة وموت وهكذا تتعاقب الأجيال واحداً بعد واحد .. ثم أين هم البشر الذين عاشوا فوق هذه الارض التي نطأها منذ مئة عام أو مائتي عام ، كلهم ماتوا وتحولوا الى تراب ، ورويت له حادثة رأيتها بعيني قبل بضعة أيام. في جانب من شارع شيخ عمر تقع مقبرة قديمة كبيرة جداً شق في وسطها شارع عريض ورصيفان كبيران . نبش من اجل اتمام هذا العمل عشرات القبور واخرجت عظام الموتى ووضعت في اكياس ورقية يستعملها ارباب الدكاكين ، ودفنت جميعاً في حفر صغيره خارج المدينة ، مررت يوما بهذا المكان ونظرت الى الحفر الخالية كانت مسودة مشربة بالزيت ، قلت هذا هو الانسان كان في يوم مثلي ومثلك يفرح ويبتسم ويعيش في الامال ويحب ويعشق ويبكي ويملأ الفضاء آهات وقهقهات وضجيجاً .

ـ كل هذا صحيح ـ اجاب المحامي ـ كلنا نفهمه ونقربها قرارنا بالشمس والقمر والصيف والشتاء والمساء والليل ولكن عواطفنا هي التي لا تحتمل . ليس ثمة توازن بين المصاب وقوة احتمال العواطف . عواطفنا اضعف من ضربات القدر ومن هنا تنشأ آلامنا ومتاعبنا .

ـ قلت تريد ان تقول ان المصاب الذي حل بساحتك بوفاة جمال كان اشد من احتمال عواطفك ولا اقول اعصابك

رد بحزم ـ بل الاصح اعصابي هي التي تزلزلت فى المكان الاول ـ أعتصم بالصمت بعض الوقت مواصلا سحب انفاس كثيفة من دخان سيكارته ثم لطم ركبته قائلا ـ تفضل لنذهب الى بيتنا ـ نهض واقفا فحذوت حذوه فيما هو تقدمنى الى القهواتي ودفع اجرتينا سوية ثم خرج الى الشارع واستأجر سيارة تاكسى دعاني اليها وجلس الى جانبي فى المقعد الخلفي وانطلقت بنا . ذكر للسائق عنواناً فهز هذا رأسه وصمت

سالته ـ هل كان المرحوم جمال يزورك كثيرا في بيتك ؟

اجاب ـ ليس كثيرا والسبب كما ترى ان بيتنا يقع في ظاهر المدينة بينما بيته في قلب المدينة فاستطيع ان ازوره دون ان أجشمه عناء زيارتي الا في النادر ، وثمة سبب آخر ان المرحوم من غير اولاد سوى ابنته سليمة ، بينما لدي في البيت اربعة اولاد صخابون يحدثون من الضجة مايزعج كل زائر ... والحقيقة انني اجد في بيته الهاديء النظيف المرتب راحة ومتعة .

خطرت لي مريم وما هو موقفها من هذه الزيارات الملحاحة فسألته ـ ارجو الا تعدم الراحة والمتعة حتى بعد وفاة جمال ....ان له زوجة رائعة .

رائعة خلقاً ونظاماً ـ عقب في تأكيد حار ـ انك قلما تجد مثيلا لها بين النساء .

مضت السيارة في الشوارع العريضة الحسنة الصقال وكانت تلتمع على الارصفة اضواء البيوت الفخمة والصالونات والاروقة والمشارب . ثم اجتزنا نصب الجندي المجهول وعرجت السيارة يساراً وواصلت سيرها في زقاق غير معبد قطعته في بـطء حتي وقفت عند احد الابواب . تمتم محمد راغب ـ هنا البيت تفضل ـ اتجه نحو احد البيوت واخرج مفتاحاً صغيراً اولجه في ثقب الباب فانفتح عن مجاز معتم

قال المحامي ـ جميعهم قد خرجوا لزيارة بيت اخي ... اننا وحدنا في البيت .

لم يهمني هذا الايضاح ، انما وجدت فيه راحة اضافية ومجالاً اوسع لالتماس المزيد من حقيقة محمد راغب. مضى في اتجاه سلم فيأدنى البيت ارتقاه بخطوات سريعة ، ثم انتهى الى غرفة منعزلة في السطح فتح بابهـا ودفعه بقوة اذ يبدو أنه عصي كما يحدث للابواب ابان ايام الشتاء ،وتلمس

المحامي سبيله في الظلام الى ازرار الكهرباء ، بينا تسمرت عند العتبةانتظر ما الذي سوف ارى اذا انسفح الضوء . التمعت ثلاثة مصابيح في ان واحد مسحت الظلمة وكشفت للعيان غرفة متوسطة الحجم على جدرانها رفوف سميكة عريضة تحمل قطعاً معدنية لأدوات وآلات مختلفة وفوانيس ومطارق ومهاريس وزجاجات عميقة اللون لا تستبين العين محتواها .

وعلى الارض طاولة مستطيلة من الخشب الخشن القوى الذي يستعمله النجارون . فوقها اشياء كثيرة يألفها المرء عند مصلحي الدراجات ، وليس ثمة شيء غير مألوف يستدعي التأمل سوى بعض الاجهزة المختبرية . قال - هنا اجرى تجاربي في الآلة ذات الاندفاع الذاتي التي تعمل من غيروقود وتوفر للانسان جهداً كبيراً وربحاً يقدر بالملايين في العام - ورأيته يرفع عن الطاولة دواليب صغيرة واقلام حديد مصقولة مختلفة السمك ومســـاكات ومحارق ذات فتائل خيل الى انني في دكان من دكاكين الســـحرة في القرون الوسطى .

قال متباهياً - انياقرأ في بعض مؤلفات جابر ابن حيان وهو كيماوي وعالم واسع التجارب .

قلت - نعم انني قد سمعت الكثير عنه ، له بحوث قيمة ووضع اسساً ونواة لكثير من العلوم الطبيعية والكمياوية التي ازدهرت فيما بعد في ارجاء أوربا .

قاطعني مصححاً - ليس هذا فقط ، انما هو الواضع الاول لعدد من من العلوم . وما كان على علماء اوربا فيما بعد بما يقرب من ستمائة عام او يزيد الا التثبت والتزود من معارف هذا العالم الجليل .

ثم شرع يشرح لي تجربته والالة المزمع بناؤها : وعلى اية حال لم

افهم منه كما ينبغي ولا ادري لم لم افهم . قد اكون غير منتبه او لست على استعداد من الناحية النفسية او وجدت الامر كله عبثاً ومضيعة لا غير .

قال متأسفاً ـ انجمالا كان يفهم كل شيء وكأنه ميكانيكي بالفطرة، كنت انقل اليه يومياً اخبار تجاربي ويشجعني ـ انه يريد مني التشجيع ولكن كيف اشجع ولاي شيء لست ادري .

ثم انتقلنا الى غرفة اخرى عاديةمعدة لاستقبال الضيوف ، فلاحظت انها لا تخلو من اشياء نادرة غريبة . كانت منافض السكاير مصنوعة من القواقع الضخمة ذات اللون العاجي ، وعلى الحائط تروس حربية ودروع واواني نحاسية منقوشة تصنع في الهند ، وقد نصبت في جوانب مخفية من الغرفة مصابيح كهربائية، كان احدها تحت سطح المنضدة من الداخل يسفح نوره على الارض مباشرة حيث يجعل الاشياء تلقي ظلالاً مستطيلة وتبقى وجوه الجالسين في العتمة بينا اقدامهم تنكشف للنور .

قال :ـ يعجبني احياناً وانا اطالع القضايا منبطحاً على الارض فوق السجادة او الحصير في الصيف معتمداً رأسي بكفي الاثنتين ؛ انني اجد ذهني في هذه الحالة اكثر صفاء واحد فطنة حتى ان كافة مواد القوانين تمر عبر ذهني كحافلات القطار فاضع يدي على التي أراها اكثر انطباقاً واوفي بالغرض .

قلت مراوغاً ـ ان صديقنا جمال رحمه الله لم يكن يصطنع هذه الجلسة عند ممارسته لزرق الابر في المنزل ، انتما تختلفان كان المرحوم يوقد النارفي المدفأة حتى في أيام الصيف ويضع فوقها اناء الماء ليغلي ويتعقم ثم

يباشر عمله وهو واقف على قدميه . كانت له مهارة مشهودة ، وأحسب انه خير رجل زرق الناس بالابر ، لا يكاد المرء يشعر باي الم ولا يمكن ان يحدث ما تسوء عاقبته .

قال موضحاً :ـ هذا صحيح جداً ولكني انبأت جمالاً بطريقتي المثلي في دراسة القضايا وكنت كلما كسبت دعوى واستلمت اجرتي عنها يبتسم لي ويقول مازحاً ـ انك درست دقائقها وانت منبطح على الارض ـ تغضن جبين المحامي في انزعاج حينما ماءت قطة في مكان ما من البيت ـ قال هذه القطة اللعينة وجدت سبيلها الينا لتاكل الجرذان . هذا تدبير زوجتي من غير ريب ولو انها تكتم عني الاخبار والحقيقة انه تدبير صائب . نترك الامر للقطط لان هذا من واجبها ومن اعمـال غريزتها ، والقطط أدرى بعدد الفئران التي تأكلها بحيث لا تجعل هذا الحيوان الصغير ينقرض . بينا نحن البشر لا نحتسب هذا الحساب وربما دفعنا حقدنا على هذا الحيوان الضعيف الى إبادته ومحوه . ان الانسان مهما قطع اشواطاً في طريق الحكمة فانه لم يبلغ مطلقاً حكمة الطبيعة ولا يستطيع ان يبزها في قليل او كثير، ولما هممت بالانصراف قال المحامي مودعاً ـ ارجو ان يكون بيننا لقاء اخر ولا اظن ان ثمة ما يمنعك من ملاقاتي في المقهى .

اجبته في تأكيد بارد : ـ سافعل كلما وجدت فسحة من الوقت .

رجاني في حرارة : ـ حاول لكل انسان اوقات فراغ ولكن العبرة في تكريس هذه الاوقات وطريقة توزيعها . ارجو ان ينالني نصيب من اوقات فراغك كما انني اهبك اوقات فراغي مهما كثرت .

كان في نيتي ان اجعل موضوع محمد راغب غير ذي اهمية بالنسبه لي

قد يكون الرجل اسير واهمة من الواهمات او منحرفاً أو شاذاً ، وقد شعرت بعد زيارتي الاولى لبيته انني تماديت معه وسمحت له ان يتصور انني قد تطوعت لتمثيل دور جمال الذي يريده لي .

وزارني مرة اخرى في بيتي وكان في حال قلقة يؤذن صوته بعظم الضجر الذي صار يستشعره من وحدته القاتلة . قال : ـ انني متعب ايها الصديق واشعر بالخمول يتاكلني وقد اهملت اعمالي ورفضت بعض المراجعين وتخلفت عن حضور جلسات المحكمة . اجد كأنما بعض الخيوط التي تشدني الى الاهتمام بمصالحي ومكاسبي قد تقطعت .

جلسنا هنيهة وانا احاول ان اشجعه وأسري عنه . قلت :ـ ليس ثمة من سبب لهذا اليأس ؛ انك رجل كامل ومثقف ولك افكار نيرة ـ قاطعني بغتة .

ـ قل لي بربك هل اعجبك اختراعي ؟

وجدت ان امتداحي لاختراعه المزعوم فيه التسرية المطلوبة لاحزانه وهو العصب الحساس الذي يورثه الابتهاج . أجبت مؤكداً ـ أنه اختراع رائع حقاً وأعتبره حدثاً لامعاً في عالم الميكانيك ، ولكني مع مزيد الاسف لست على شيء من الفهم .

نصحني في رفق وهو يكاد يلتمسني ـ لو كنت ملماً بالميكانيك لفهمه من غير عناء . انني استطيع ان ازودك ببعض الكتب التي تبحث في الميكانيك واصول تشغيل المكائن وتركيبها ، لو ألقيت عليها نظرة يسيرة لفهمت اسرار هذا العلم العظيم ، ولكان في ميسورنا نحن الاثنين ان نتحادث ونتناقش ونستثمر أوقاتنا ، ولكني لست ادري كيف اشوقك .

كانت كلماته الاخيرة توحي بحسرة الرجل اليائس من اصلاح

اعوجاج أمري ما ، وان هذا الاعوجاج قد اورثه شتى المضايقات وفوت عليه فرصاً لا تعوض ، ولكن ما ذنبي انا وما هي مسؤولتي تجاهه انني لا استطيع الا ان اكون رفيقاً به .

انطلقنا الى المقهى وجلسنا في مكاننا وحاولت بادي الامر ان انقل الحديث الى امور عامة ، فوجدت الرجل متتبعاً للاحداث الهامة قدر ما تنقله الصحف والاذاعات ولكنه ليس من هواة السياسة واصطياد المناصب والتطبيل والتزمير لأحد من الناس ، الا انه مولع بالتعرف على القضايا العظيمة التي تتصل بحياة الناس ، واذكر ان احداث الزلزال في المغرب التي اودت بحياة الالاف كان لها رنة اسي في نفسه . قلت بأسف ـ عوائل بكامل افرادها طمرت تحت التراب . الرجل وزوجته واولاده وامه وابوه خلية اجتماعية مزودة بكل عناصر الانماء والحياة .

قال بعد تأمل ـ مصير اهون ذلك الذي يلقاه كل افراد الاسرة من المصير الذي يقع لاحدهم او بعضهم ليس ثمة حزن يتخلف في صدر احد ـ صمت بضع لحظات فيما كنت ارقب وجهه الغارق في التفكير ـ استطرد يقول ـ أتساءل احياناً ما الذي يدعوننا الى البكاء على الميت والتفجع له ، انك عندما تنظر الى وجوه الموتى وهم مضطجعون على اسرتهم لا تجد مطلقاً اي اثر من اثار الاسف على الدنيا ... انهم مرتاحون وخالدون الى الدعة كانهم يقولون لقداسترحنا وانهينا محكوميتاناولكنك تسمع بدل ذلك العويل والنحيب وشق الجيوب كما يقولون ثم لبس السواد والانقطاع عن المسرات ، وبالنسبة للنساء يضربن عن الاستحمام لاشهر عديدة . ان والدتي امضت سنة كاملة من غير استحمام ،فتشقق جلد ظهرها وتقيح وكادت تموت بداء الجرب . واتساءل احياناً في قضية تتصل بحرفتي

كمحام . ان القوانين العقابية قد وضعت اقصى عقوبة تنزلها بالمجرم هي ازهاق روحه من بين جوانحه.تلك اقصى العقوبات واشدها ، وننشط نحن المحامون ابلغ نشاط من اجل زحزحة المتهم عن هذه العقوبة ، ونقبض لقاء اتعابنا الاف الدنانير ، ونطالع عشـــرات الكتب وندبج اروع الكلمات المؤثرة والشجية والمفحمة ، ونأتي بضروب المكر والمراوغة لتسفيه شهادات الخصوم وتفنيدها . اتساءل لم هي عقوبة الموت هي اقصى العقوبات . انك ان حكمت على متهم بالاشغال الشاقة وفي اعماق زنزانة فيها اسراب الحشرات والفئران المتوحشة التي تنهش السجين وتعذبه وتلوث طعامه وهو مثقل ببضع ارطال من الحديد وفوق جلده ملابس رثة خشنة ، تكون ازاء هذا الحكم قد مننت عليه واكرمته، بينا الامر لا يعدو ان يكون هواناً في اقصى صوره . اريد ان اقول او ان الانسان يفهم شيئاً عن الآخرة ، أي العالم الذي يلي عالم الاحياء ، لتغير القانون ولم يوضع بالشكل الموضوع فيه الان . ولو ان طبيعة الانسان تغيرت واستساغ الموت بدلا ان يتجنبه ويخافه لكانت اقصى العقوبات هي السجن المؤبد ، وكنا نحن المحامين نسأل المحكمة ان ترحم المتهم وتعدمه وتجنبه الزنزانة والحبس .

ابتسمت لكل هذه التخريجات التي جاء بها محمد راغب ووجدتها في الحق ظريفة ولا تخلو من اثار عقل يحب الاستقصاء والتعليل والافتراضات. واتصلت موضوعات الحديث الى شؤون كثيرة ، ثم سألته عما فعله في موضوع التقاعد الذي تستحقه أرملة جمال .

قال ـ « انني راجعت وزارة الصحة وقدمت طلباً نيابة عن مريم واستحصلت الاوراق والكتب اللازمة وحملتها الى دائرة التقاعد والمسألة تسير سيرها الطبيعي ، وبالاضافة فانني قدمت لها بعض المعونات الصغيرة

لتدوير امورها والانفاق على ابنتها قدر ما تسمح لي امكانياتي المالية » ثم استطرد بنبرة مشفقة « انني أودي واجباً . ولولا ان يقع ما يكدر الصفو لحملت الارملة مع ابنتها ان تقيما في بيتي ولكني اخشى الا تنجح الفكرة بسبب فقدان الانسجام مع زوجتي » .

كان هدفي ان اتجنب التحدث معه عن مشاريعه الميكانيكية لانني اراها عقيمة . ومن الخير ان ينسى الموضوع ويطويه وينصرف الى حرفته الاصيلة ، ولكن يبدو انه يعلق آمالا ضخاماً على اختراعه المزعوم فقد سألني على حين غرة ـ هل بالامكان ان تزورني اليوم ؟

تحيرت وصمت الا انه نظرني في حدة منتظراً ان اجيبه .

سألت في ضيق ـ علام ؟

قال ـ انني اعتزم تركيب بعض الاجزاء الصغيرة في الالة ويسرني ان تكون الى جانبي لمعاونتي .

اجبت معتذراً ـ «ولكنك ترى انيلا افهم شيئاً في موضوعالميكانيك ولا اجد نفسي ذا غناء » .

رفع راحته اليمني الى جبينه وحكه ـ ثم امر اصابعه وخلل شعره الكثيف المضطرب . لقد شعرت بالملل لهذا الرجل وغدت لجاجته الفارغة تثير اشمئزازي من شخصه كله .

قلت مستطرداً بنبرة باردة مؤنبة ـ انك ان كنت تعجز عن اجراء تجاربك بنفسك فالاجدر بك ان تكف ، ليس ثمة عالم في ارجاء الارض يبحث عن رفيق ليجلس الى جواره يشجعه ويؤنسه .

قال في لوعة ـ هكذا تقول وقد صرت اتذوق صداقتك ، بعد ان فقدت صديقي جمال .

أجبت متبرماً وبشيء من القسوة « ليس من واجبي ان اخلف الميتين واتقبل صداقات مفروضة علي».

واسترسل يقول بنبرة حزينة شاكية وكأنه يحدث نفسه « صداقتي مكشوفة صريحة خالصة يعلم الله انني لا اريد شراً بأي مخلوق مهما قلت قيمته . انني اشفق على كل المخلوقات حتى النمل والجرذان ، ولكن لم اقابل بالجحود والنكران لملا القى من يواسيني ويسري عني ؟ »

سألته في جفاء ـ ما الذي تريده يا سيدي ؟

ـ ان اجبت فهل تنفذ ؟

ـ انفذ ان استطعت .

ـ لنذهب كرة اخرى الى منزلي .

وافقت دون حجاج ، خرجنا الى الشارع وركبنا السيارة فمضت بنا في الشوارع نفسها حتى وصلنا المنزل دون ان نتبادل في الطريق حديثاً هاماً . رأيت في هذه الزيارة ولديه الصغيرين . وكان كلاهما يتبعنا انظاره حينما مررنا بالمجاز ووصلنا السلم . كان الاكبر يبدوا ذكياً وذا لسان منطلق ويتحدث الى ابيه وكأنه زميله او صديقه ، والاخر كان صغيراً لم يستقم لسانه بعد . يقف عند عتبة غرفة النوم وينقل بعض الاخبار الى امه التي لم تشأ ان تخرج لاستقبالي . ويبدو ان الولد الاكبر قد احس بفاجعة ابيه بوفاة صديقه الحميم وشاركه الحزن فقد سأله ان كان قدزار السيدة مريم .

فاجابه محمد راغب اجابة رقيقة ـ نعم زرتها .

وعقب الولد وهو يوجه الخطاب الي ـ « اننا تألمنا كثيراً لوفاة العم جمال . كان انساناً محبوباً كثير الحسنات » .

سألته ـ كيف عرفت ؟

قال ـ كنت مريضاً في السنة الفائتة ، فقد اصبت بالتيفوئيد ، وكدت اموت لولا ان يسعفني العم جمال كل مساء فيزرقني بابرة ويستفسر عن صحتي ويطمأنني ويسليني . كنت احبه كثيراً ، ولا يقل حزني من اجل وفاته عن حزن ابي .

اردف محمد راغب متفجعاً ـ الكل يحبونه لم يصنع غير الخير في حياته .

واذ ما دخلنا غرفةا لعمل التي يضع فيها محمد راغب اشياءه وجدتها كما تركتها اخر مرة . مهملة ومغبرة قال ـ « لشد ما يتراكم الغبار » ـ وشرع يمسح بعض الاشياء بخرقة بيضاء كبيرة . وسرعان ما اندمج ابنه الاكبر في هذه العملية ، فاحالا جـــو الغرفة الى عجاجة تضايق الانف . قال ـ « اعتزم ان اشتغل قليلا طالماانت معي . تستطيع ان تتفرج وتستفسر» فوافقت وانا اسخر من هذا العبث كله . جلست على كرسي كبير مريح يمكن ان يتخذ منطرحاً للاستلقاء وربما النوم بينا اتجه محمد راغب نحو المشجب ورفع منه مئزراً ابيض وارتداه فبدا لي اشبه بالمضمدين الذين يلقاهم المرء في اروقة المستشفيات ، ابتسمت لهيئته ولم انطق بحرف وشرع يعمل ولست ادري اي شيء يعمل . كان يدير دولابا صغيراً خشن السطح يجلو به بعض القطع المعدنية ثم يحملها الى هيكل حديدي يحاول ان يثبتها فيه وينظر بين حين واخر في صفحات كتاب مهلهل من الضرب الذي يحوزه قاريء الكف عند ابواب المساجد .

جلست نحو نصف ساعة لم اشعر بالضجر قط انما استغرقني التفكير في هذا الصديق الجديد الغريب الاطوار الذي اندفع الى صداقتي اندفاعاً غير ارادي . كنت ارفع اليه ناظري واتأمل في يديه العاملتين في حمل المبارد

والمطارق الصغيرة ورأسه الكث الشعر المنتهي بسالفين موخوطين بالشيب. قلت لنفسي هل انا أودي واجباً انسانياً تجاهه ؟ ترى لو رفضت صداقته وامتنعت عن لقائه وتركته لوحده ما الذي سوف يحصل له . ينتحر ام يجن ام يثوب الى رشده .

قال في عزم ـ اني قريبا افرغ من انجاز اختراعي فلم تعد امامي مصاعب كثيرة فقد ذللتها جميعا ـ ثم وضع سلكا في ثقب الكهرباء وضغط الزر فسرت القوة الى محرك ما فصار يطن ويدور . وطن ودار معه جملة دواليب مركب بعضها الى بعض، وصار يشرح لي ولم ارفي شرحه حتى ذرة واحدة من الاهمية . قال اخيرا ـ ثمة اشياء اخرى تضاف الى هذا الجهاز فتجعله يعمل من غير معونة الكهرباء وهنا تكمن مكانة الاختراع واهميته .

ضاقت نفسي من حديثه فاقترحت ان نعود الى المهى فوافق وقال ـ ليس من المفروض ان نصنع اشياء كثيرة في جلسة واحدة ، المهم ان يخطو الانسان في اتجاه هدفه بعزم وببصيرة ـ ادرت وجهي وابتسمت هازئا ـ لاشك ان كلمة الجلسة استعارها من قاموس المحاكم .

أمضيت معه ذلك المساء وانا اقلب وجوه الرأى للاهتداء الى حل انقذه به من ورطته . وفي المقهى قادني الى مكان جمال وجلس جواري منتشياً بالراحة فرحا مبتسما لكل كلمة تلفظها شفتاي حتى وان كانت من غير معنى . ثم ودعته وهو يرمقني بنظرات مشفقة ان اضرب له ميعادا ـ قلت بعد بضعة ايام تستطيع ان تزورني ـ فابتسم ومضى الى بيته .

خطرت لي فكرة ظريفة هي ان احاول صرفه عن مزاعمه في علم

الميكانيك واختراعه الخيالي ، ذلك بان اناقشه في امور قانونية هامة بصفة مستفسر عن نقاط لست افهمها . ولاجل تنفيذ ذلك استعرت من احد الناس كتابا في قانون العقوبات الشهير الذي يتداوله المحامون بكثرة . تصفحت هذا الكتاب ثم شرعت اقرأ بعض المواد من صفحات مختلفة فعلقت بذهني المادة ٥٠ والمادة ٥١ حول الدفاع الشرعي عن النفس وعن المال .

حالما لقيته في المرة التالية لم اترك اه فرصة حديث . قلت في تأثير ـ حلت بجار لنا مصيبة كبيرة اوقعته في ورطة بالغة التعقيد .

استدار نحوى ورشقني بنظرة مستفسرة سألني كيف ؟

قلت ـ في نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل وكنا جميعا ننام فوق السطوح سمعت فجأة عدة اطلاقات من مسدس تصدر من بيت الجار فخيل الى اول وهلة ان احدهم قد انتحر ، فتركت فراشي مذعورا لاستطلع الخبر ، ثم ما لبثت ان سمعت زعقات حادة وعويلاً .. تدرى ما الذى حدث .. سطا لص عل بيت الجار واقترب الى سرير احدى النساء محاولا سرقة حليها وهي قلادة واساور وسواها فشعر به الزوج فسحب مسدسه وقتل اللص ولكنني عندما ابصرت باللص وهو ملقى مضرجا بدمائه جوار سرير المرأة لقيته يحتذى حذاء وجوربا جيدين ويضع ربطة على عنقه، ووجهه حليق وشعر راسه يومض بالفازلين وكأنه قادم على موعد غرام لا لصاً عاديا يسطو على البيوت . بينا الزوج راح يقسم اغلظ الايمان انه كان يحاول سرقة حلي زوجته ... ترى اى ادعاء انفع لهما الحلي ام محاولة الاغتصاب المرأة وهتك عرضها .. انني لا افهم كثيرا هذا في هذا الموضوع.

فكر هنيهة وبروح حماسية نشطة للكسب قال ـ لو كان لدى من

الوقت الكافي لتوكلت عنه ولوجدت مخرجا سهلا امينا ولكنني لا استطيع في الوقت الحاضر بسبب انشغالي .

قلت ـ انني لا اسألك ان تتوكل ام لا . أنا اسألك ما الذى يذكره القانون في هذه القضية .

اجاب شبه مكره ـ المادة ٥٠ تتحدث عن هذه الجريمة وكذلك المادة ٥١ ولكن ايهما انفع المادة ٥٠ ام المادة ٥١ كلاهما تخص الدفاع الشرعي وتبيح القتل عمداً وقصداً في حالات معينة لا مجال لبحثها الان .

قلت ـ الدفاع الشرعي عن النفس والدفاع الشرعي عن المال ثمة حالتان كما اعرف .

اجاب في ارتياح ـ انت تعرف جيداً هذة المسألة ... نعم حالتان بكل تأكيد ، حالة الدفاع عن النفس ، وحالة الدفاع عن المال .

سألته ـ هل تتوكل في هذه الدعوى ؟

قال ـ لا استطيع ، ولا وقت لي ارجو المعذرة .

ـ اذن نورني ببعض التفاصيل

ـ ليست معي كتب في القانون

ـ استحضرها .

نظرني باستغراب ولكنه لم يشأ معارضتي قال في تريث ـ يا سيدي انني لا انظر في مثل هذه الدعاوي . انها جزائية وعملي شبه محصور في القضايا الحقوقية .

ـ انا لا اسالك ان تتوكل ولكن وضح لي ما هي هذه الحالات .

ـ موضحة في قانون العقوبات . تفضل معي الى البيت وخذ هذا القانون وطالع فيه اذا شئت . ولكن ما الذي يدفعك الى الاهتمام

بهذه المسألة ؟

- لي ولع في دراسة القانون كما ان لك ولعاً في الميكانيك ، وان وجدت دراسةالقانون كثيرة علي فهي ليست باكثر من دراسة الميكانيك عليك.

فكر هنيهة وقال في تهكم - ليس بمستطاعك ان تبدأ منذ الان بدراسة القانون .

أجبت بذات صوته المتهكم - استطيع كما استطعت انت . وربما اصل الى رتبة مشرع او رجل قانون كبير لو تفضلت واعرتني بعض الكتب وشرحت لي النظريات وتدارست معي .

اجاب في ضيق - يا اخي انا لا استطع .

- كيف ؟ انك محام ورجل قانون والموضوع من صميم اختصاصك .

- ليس لدي وقت .

وهنا وجدت المناسبة كي ارد عليه بصــراحة - وانا الاخر لا وقت لي .

شعر انني اعتزم التخلص منه . وان جرأ وسأل في اى مجال ان لاوقت لي لاجبت الميكانيك ، ولقلت انه في محاولة يائسة وبائسة ولن تثمر تجربته اي نفع مطلقاً . وكل ما يفعله ويسعى اليه ويتصوره هو ضلال في ضلال .

ولكنه لم يتكلم بحرف ولا شك انه ادرك انني قد انتهيت من صداقته . ولم يلبث طويلا فسرعان ما ضم شفتيه في ألم وخيبة .

قال وهو يتأهب للانصراف

- هل استطيع ان انتظر زيارتك في وقت قريب ؟

اجبت في اعتذار جاف - انني منشغل بالاهتمام بقضية الحار ،حدثتك عنه واعتزم مطالعة بعض كتب القانون ودراستها مع احد الفقهاء .

قال في بداهة ـ التحق بكلية الحقوق . ذلك انسب واقل متاعب واعم فائدة .

قلت في مراوغة ـ كلا انما اريد ان احدو حدوك لا اعتمد على الكليات او المدارس انما على السعي الشخصي او البحث الذاتي . انني اريد ان اكون عصامياً متحرراً من قيود النظام ورحلة الصف كما فعلت انت في دراستك للميكانيك التي تدعى انك المتها وبقرت بطنها واستخلصت احشاءها وصرت تخترع وتتسابق مع العلماء .

انقطع محمد راغب عن لقائي ولم اعد اعثر له على اثر حتى انني كنت اجد له بعض الاعلانات في الصحف يدعو ارباب الدعاوي الى مراجعته في نقابة المحامين صباحاً . هذه الاعلانات اختفت ايضاً .

ومضت بضعة اشهر وهو مختف عني ، فعجبت لامر اختفائه وترك في نفسي هوى ملحاحاً لا ستقصى حاله واستطلع ما الذي انتهى اليه اختراعه المزعوم .

كنت اعلم انه على صلة ما بمريم ارملة المرحوم جمال، فقد ابلغني غير مرة انه هب لمساعدتها كما يجدر بصديق وفي امين ، وتوكل عنها في استحصال التقاعد وتكللت مساعيه بالنجاح . ولا زلت اذكر النبرة المشفقة التي يصطنعها كلما تحدث حديثا يتعلق بالارملة .

عقدت العزم ان اقوم بزيارتها واستطلع كل خفايا المسألة . كان صباح جمعة في اوائل شهر تشرين الاول وقد لاذ معظم الناس بالغرب بعد ان اجتاحت المدينة موجة مفاجئة من البرد غير منتظرة . كانت الشمس ساطعة قوية تنهمر على اجساد المارة فتضايقهم بعض الشئ ولذا وكان الجانب الظليل من الشارع يموج بعدد كبير منهم .

بلغت الزقاق في نحو الساعة العاشرة فتذكرت ايام صداقتي لجمال اذ بدا كل شيء على حاله لم يتغير .

وعندما بلغت الباب استشعرت الخجل والتأنيب ، ومع ذلك فقد طرقته رغم انه مفتوح نصف فتحة . ووضعت قدمي في المجار الصغير الضيق وخطوت عدة خطوات ثقيلة مسموعة . مرت بي لحظات حرجة قبل ان يظهر لي رأس مريم من احد الابواب . صاحت في ترحاب ـ « تفضل اهلا بك وسهلا » .

ارتفع حاجباها وهشت في استئناس ـ « زيارة كريمة اهلا بك » ـ تقدمت فى خجل الى الكرسي الكبير المبطن الذي اشارت اليه فاقتعدته ونظرت مليا اليها .

كانت في حال افضل ، فهي ارشق قامة وانحف وقد اسبغ عليها ثوبها الاسود الطويل الضيق الاكمام وقار المرأة الفاضلة المترفعة قليلا كما ان صوتها المبحوح ذاالصدى الثقيل قد تلطف الى حد ما وزايلته البحة ، وتركب في مكان سنها المقلوعة في واجهه الفم سن اصطناعية ، وشعرها كعهده فاحم عميق السواد ولاشك انه مصبوغ بعناية ومرتب بيد متمكنة .

قلت ـ يبدو انك على اهبة الخروج .

قالت في ظرف ـ لابأس انك لم تزرنا منذ وقت طويل .

غزت ذهني ذكريات جمال الحلوة وجلساته المتطاولة في هذه الغرفة فغلبني الاسى وقلت ـ « اخر مرة ايام العزاء » ـ ارتسمت الكآبة على وجهي وسرت بصورة مشوشة الى وجه مريم على نحو اضطراري .

قلت بعد صمت ـ « ارجو الا تكوني قد لاقيت المتاعب من اجراء ملاحقة معاملة التقاعد »

تنهدت في ارتياح ـ « الحمدالله الذى يســـر لي بعض الاصدقاء فجنبوني المراجعات ووفروا لي تعباً كثيراً . وانت تدرى أية دوائر نملك وكيف تجرى الاعمال وكيف تبدا وكيف تختتم » .

هززت رأسي ـ « انها بلا شك تبعث على ابلغ الضيق ... ومع ذلك فانت في خير » .

اكدت كلامي في تفاؤل ـ « الحمد الله انني في خير، وسليمة بلغت الصف السادس ومجتهدة ... اليس كذلك يا سليمة » ـ ابتســمت الطفلة وهزت راسها ـ استطردت مريم في فخر ـ « اريد ان اجعل منها طبيبة حاذقة لها من الذكاء ما يؤهلها لكل دراسة » .

عقبت قائلا ـ « مثل ابيها ... كان المرحوم عالما بامور الطب » .

اجابت اسفة وبتهكم «كان عالما حقا ومن اجل هذا السبب لم يرفع ولم يضمن له تقاعد محترم » كم هو التقاعد ؟ سألت

ـ « اثناعشر دينارا لاغير ، كما يذكر في ورقة الكمبيالة » .

كانت في مزاج حسن ظريف .

سـألت بلا تمهيد ـ الم يكن بامكان محمد راغب ان يجعله اكثر من هذا المقدار ؟

نظرتني مليا وهي تحك شفتها العليا بطرف ابهامها .

جمجمت متسائلة « محمد راغب انك تعرفه اليس كذلك؟»

ـ اعرفه جيدا وهو صديقي لاسيما بعد وفاة المرحوم .

ـ انه صديقك ومع ذلك فانت لا تعرف ما الذي حل به .

سألت في جزع ـ ما الذى حل به ؟

تنهدت ومطت شفتيها ـ المسكين ... ادخلوه الى المستشفى .

ـ مريض ؟

ـ اجل مريض

ـ اية مستشفى ؟

ترددت لحظة . لم يكن امامها بد من الافصاح , قالت في صوت خافت ـ « الشماعية،لقد اصيب في اعصابه من جراء فشل مشروعه . كان يعد مشروعا خطيرا يجابه به العالم حيث يأمل ان يصيب من ورائه ارباحا طائلة من المال ولكن يا للاسف ترك مشروعه فجاة وصار يهذي ويطوف في الارقة اشبه بالمعتوه ... انني الساعة اذهب لعيادته ، ذلك واجب انه صديق حميم وذو يد بيضاء علينا .

سألتها في التماس ـ انت كنت تسمحين لي بمرافقتك اليه ... انني صديقه ولكنني فقدت اثره منذ اشهر .. ذهبت الى منزله عدة مرات ورأيت الى اولاده الصغار ودخلت غرفته التي بعد فيها اختراعه . كان متفائلا كبير الامل ويذكرك بالخير .

سألت في اهتمام ـ ما الذى كان يقوله عني ؟

ـ لاشيء هام . كان يذكرك بالخير ويبدو انه كثير الاهتمام بشؤونك . واذكر مرة انه قال شياء عن رغبته في ان تنتقلي مع ابنتك الى منزله وتقيمين هناك .

اجابت باباء ـ كان اقتراحا غير عملي ورفضته .... اهذا فقط الذى ذكره لك ؟

ـ نعم

تمتمت في يأس ـ يا له من رجل عجيب يجمع المتناقضات كلها ولن تفهم له في نهاية الامر لوناً خاصاً

قلت ـ كيف ؟ انني لمست البعض من اضطراب حياته .

اجابت في اسف « اضطراب عقله ياسيدي ... كان ايام المرحوم جمال اهدأ بالاواليق سلوكا » .

ـ ما الذى كان يريده ؟

لم تجب مريم . كان وراء صمتها سر .

قالت في ضجر ـ « دع هذا الان وهيا نذهب اليه ، لتقف بنفسك على كل شيء . ثم انني لا اريد ان اكون وحدي ... انتظرني قليلا ريثما اودع سليمة في بيت الجيران ، فلا يصح ان ترافقنا الى المستشفى » امسكت بيد طفلتها واتجهت الى الباب قائلةلها « لن نتأخر سوى ساعة واحدة » ودست بين اصابعها عشرين فلسا .

خرجنا الى المستشفى انا ومريم . لم تضف شياء الى ملابسها اذكانت مهيأة ومتبرجة بعض الشيء غير انهاسحبت عباءة معلقة علىالمشجب قائلة ـ «الطريق بعيد والسفور غير مستحب» فايدتها ثم مضينا عبر المجاز متجهين الى الطريق .

كنت اعلم ان مستشفى الشماعية تقع على بعد اربعة اميال شرقي بغداد يسار الطريق المودي الى بعقوبة . ولكن ايةواسطة تصل الى هناك. كانت مريم تعرف خيراً مني انها قد ذهبت غير هذه المرة لوحدها سراً لذا كان على ان اتبعها حتى ساحة الطيران حيث سمعنا نداءات تنطلق من سيارة عمومية ذات هيكل خشبي تدعو الى الشماعية ـ هتفت مريم ـ عجل ها هنا سيارة .

لمت اطراف عباءتها وخفضت رأسها دافعة بجسدها الى مقعدطويل وعر من غير نوابض فحذوت حذوها صامتاً .

كانت الشمس ساخنة اكثر منها في ساعات الصباح . وان الذين حسبوا ان الصيف قد ولى في ساعات الليل لمسوا وطأته الثقيلة في ساعات النهار . وقد اخترقت السيارة في باديء الامر شوارع عريضة مزدوجة ذات شعب وفروع كثيرة حتى انتهت الى ظاهر المدينة ومضت في طريق متوحد وسط مساحات كبيرة من ارض قفراء مجدبة . تنهض هنا وهناك مداخن معامل الطابوق بعضها ينفث دخاناً كثيفاً وبعضها الاخر من غير حياة البتة اذ قد صدرت الاوامر بهدمها ، ثم يرى المرء الصورة الابدية في اطراف كل مدينة ، وهي الصرائف والخيام وجمهور الرعاة والفلاحين الحفاة واكوام الحطب وسرب الكلاب .

بلغنا المستشفى بعد ان تعرجت السيارة عدة مرات في ارض مأهولة بالبيوت تقوم عندها مدرسة ابتدائية وسجن كبير للاحداث ومحطة قطار ومساكن للعمال . سألت مريم رجلا ضخم البناء شفاف المزاج عن امكانية مواجهة محمد راغب . اجاب الرجل اجابة الواثق المتمتع بالسلطة ـ « بعد ربع ساعة نخرج المرضى المطلوبين جميعاً ـ وسجل اسم محمد راغب في ورقة صغيرة ناولها الى زميل له فهز هذا رأسه .

قلت لمريم ـ « انني ساقوم بجولة قصيرة استطلع ارجاء المستشفى» .

اجابت ـ لا بأس سانتظرك ريثما تعود ـ واشارت الى مصطبة واتجهت اليها .

كانت المستشفى مترامية الاطراف يتعذر على المرء ان يجد وصفا لشكلها ، فهي مجموعة متراصة من الابنية المستطيلة ذات طابق واحد غنية بالنوافذ بعضها كبير واطيء والبعض الاخر صغير مرتفع اشبه بالكوى في القلاع . كانت عنابر الرجال تقع في مقدمة المستشفى بينا عنابر النساء في

المؤخرة . واذ كان الوقت ظهراً فقد قامت حركة ناشطة مسلية بين المرضى قبل ان يحمل اليهم الطعام . كان قدخرج من كل عنبار جماعة صغيرة تحمل سطولا واوعية متجهة الى المطبخ . كان المطبخ عبارة عن بناءمربع ذي سقيفة واطئة تكدست تحتها اكياس الرز والمخضرات ، مزوداً بمفرغات هواءتدفع الدخان والابخرة الى الخارج . ومعظم العاملين في الطبخ هم من المرضى انفسهم اولئك الذين لا يخشى شرهم وانفعالاتهم . وكان بقية المرضى من الرجال والنساء يقبعون عند الشبابيك وجلهم بادي اختلال العقل زرى الهيئة غريب النظرات متهوس ثرثار لا يفتأ يستجدي السكائر والنقود بالحاح من المارة والمراجعين ، بينما ادارة المستشفى قد لصقت اوحات تمنع منح العطايا والهبات الى المرضى قلت لنفسي آخر الامر - في مثل هذا المكان انتهى المحامي محمد راغب .

عندما عدت الى مريم كان محمد راغب قد اخرج توا من العنبار ورأى الى مريم وجلس فوق الحشائش الخضراء الكثيفة المحيطة بواجهة المستشفى . نظرته عن بعد عدة امتار خلسة . كان يرتدي منامة نظيفة من البازة ذات جيوب واسعة هي اردية المستشفى تخصص لاولئك الذين يحظون بعناية ملحوظة بالنسبة لمكانتهم ، وقد صف شعر رأسه باستعجال وبمشط خشن الاسنان ، يدخن سيكارة وفي جيبه الصدري علبة وثقاب . اومأت الى مريم ان ادنو فقد كان محمد راغب يحتدم لسبب لا افهمه ، سمعته يقول » .

- اذن القيت بي في هذه الزنزانة الرهيبة جراء ما صنعت لك من معروف وما انفقت عليك من مال . انني لن اتخلى عن اختراعي وان قامت دونه حرب طاحنة تمطر فيه السماء حمما وصواريخ ، لن يستطيع احد

اعتراض سبيلي .

تمتمت مريم في اشفاق وحسرة ـ ما شأني انا يا سيدي باختراعك انني محزونة من اجلك ، ولا يمكن ان اتجاهل اياديك البيض علينا .

ـ اذن اطلبي من المدير ان يخرجني من هذا المكان المقيت . ان المدة المقررة لكل انسان في هذا المكان لا تقل عن عشرة اشهر، ويتباهي الاطباء بكل صلافة انها مدة قصيرة وتدل على التقدم . تصوري عشرة اشهر مع مدمني المخدرات والخمور وجمهورالبغايا والمعتوهين والمشردين ،أي موقف هذا بالنسبة الى مخترع يعكف على انجاز اختراع مدهش مذهل يجعل اعظم علامة على ظهر الارض ينحني اجلالاً لي .

قالت مريم في تحسر ـ انني لا أعرف اي شيء عن سبب احتجازك في المستشفى وليست لي اية معرفة بانسان .

ـ اذن لم انت هنا ؟

ـ جئت اعودك، اسأل عن حالك واتمنى لك الشفاء والخير والنجاح

ـ ولكنني مشافي ومعافي، انني لا اشكو اي مرض ، وراغب في مواصلة تجاربي وخدمة العلم وانجاز اختراعي في وقت قريب ارجوك مريم انني هنا في سجن .

ـ ما ذنبي انا ...... لست افهم .

تأمل محمد راغب وقال في ثقة ـ اذن فعل كل ذلك العلماء والمخترعون . اولئك الحاسدون الشامتون خشية ان أفضح قصورهم وجهلهم وتخلفهم . ربما انت بريئة يا مريم وظنوني بك في غير مكانها .

تضرعت مريم في« اسي ـ ليكن الله عونك ...... وهذا الاختراع الذي ما تزال ترردده وكأنه كنز من كنوز الملك سليمان ، أي شيء هوهذا»

أي جدوى من ورائه .

ـ ملايين الدنانير يا مريم• استطيع ان اكسوك بقميص من الذهب واصطحبك معي في اقطار العالم •

ـ ولما لا تصطحب زوجتك • انها اولى مني •

همس محمد راغب في نبرة قانطة ـ « طلقتها ... ذهبت الى اهلها مع الاولاد ولن تعد مرة اخرى ولا اظن انني سوف احتاجها بأي حال...... لقد رتبت اموري ان تكوني انت معي كما كنت مع جمال» تقدمت خطوات ووقفت تجاه محمد راغب وجها لوجه• القي على اول الامر نظرة عابرة ولم يعرني اهتماماً ثم بدت فجأة في عينيه ايماضة فعل من يتذكر امرءاً ما غاب عن باله • فتح فاه وحملق في وجهي مقطباً حاجبيه تقطيبة مروعة ، قال في انشداه ـ « انت ايضاً هنا ، ما الذي تفعله • جئت تراني • ذلك شيء عظيم • اذكر انك اعتزمت دراسة القانون لتغدو فقيها من الفقهاء اومشرعاً كبيراً • ما الذي انتهت اليه جهودك ؟

اجبت في مرح وانبساط ـ « انتهت الى خير وغدوت محامياً ورجل قانون ؟

ـ « اذن ما الذي تفعله هنا ... تتفرج على المرضي »

ـ « نعم .... اتفرج على المرضى »

ـ اظنك تكذب جئت في نزهة مع صديقة .... مع مريم اليس كذلك يا مريم .... انتما اتيتما في سيارة واحدة وقد تكون خاصة لقطع السنة المتقولين ... وانه ميعاد وصحبة مشهية وشمس لامعة ضاحكة لتتفرجا على سجين في قفص وتفرحا نفسيكما باسداء معروف كاذب علي .

قلت مقاطعا ـ أنا جئنا من اجل رؤيتك لانك صديقي وصديق

المرحوم الذى هو زوج مريم ، وليس ثمة هدف اخر .

ـ «اعرف اعرف من اجلي ومن اجل صداقتكما الطاهرةالبريئة ..... اعرف جيدا انكما سعيتما سعيا محموما من اجل ان تدفعاني في الزنزانة وتقفلان من دوني الابواب . تلك خطة بارعة من اجل ان تتخلصا مني ومن زياراتي والحاحي ومودتي . ولكنكما لم تفكرا قط انني على ابواب انجاز اختراع عظيم انفقت ايام وايام من اجل اتمامه ....اواه انني اخشى اليأس ان يتسرب الى نفسي فيضيع كل شيء من يدى ... ولكني اصمد للمناكدات بعزيمة وصبر وايمان » ثم شرعت عيناه تدمعان عجزاً وقنوطا .

قلت في واليجة نفسي ـ اية قوة فوق الارض تستطيع ان تقنع هذا الرجل انه واهم وموسوس وليس ثمة شيء اسمه اختراع وانه غير مضطهد بالمرة .

سألته في مودة متناهية ـ « يا اخي محمد راغب أنني مستعد اناودى اليك اية خدمة تشاء . ان اردت كلمت المدير من اجل اطلاق سراحك » ثم تقدمت مريم ووضعت كفها على ظهره كما تفعل الام مع ابنها المتقلب الاهواء وقالت برقة يا عزيزي حسن ظنونك ، فكر مليا ، نحن اصدقاء لااعداء . نريد لك الخير والعافية ولا زلنا جميعا عند خدمتك » .

قال في ذهول « على اية حال تستطيعان ان تدعيا شتى المزاعم في سبيل نواياكما ، ولكني في الحقيقة لست في حاجة الى زيارتكما ولا اريد ان تتخذا من نكبتي موضوعا لغرامكما ولا من هذه المستشفى مكانا لمواعيدكما . انما يهمني بالدرجة الاولى هو الاختراع » واستدار في قوة وهو يردد في انفعال ـ الاختراع ذلك كل شيء في حياتي ـ ومضى الى عنباره وصراخه ما يزال يدوى وقد التفتت اليه الانظار .

في الطريق حدثتني مريم حديثا عجبا عن محمد راغب وعن تصرفاته. فقد اخذ يطرق بابها في اية ساعة يشاء من ساعات الليل اوالنهار ويعرض عليها معونات مالية لاتحتاجها ويمكث جالسا يثرثر في موضوع اختراعه ويدعوها الى بيته كي تطلع عليه . وانه الح عليها ان يصطحبها في سفرة طويلة بعد ان ينجز اختراعه ويربح الملايين ويكون موضع حفاوة علماء العالم . وعندما نصحته بالتروي والتعقل جن جنونه وصار يهذي ويزبد حتى لفت اليه انظار الجيران فوقع في ازمة نفسية معقدة عملت هي من جانبها على استفحالها وتقويتها ،فقد تنكرت لصحبته وشاكسته وداورت معه حتى اختلط عقله وصار يعارك زوجته ويزجر اولاده ويضربهم ويهمل عمله وملبسه وطعامه . فلم يكن بد من ادخاله المستشفى وحمل زوجته واولاده الى بيت اهلها . هكذا عدت من زيارة محمد راغب في المستشفى وانا أتقطر اسى واسفاً من اجله .

ترى من الذي جنى على محمد راغب ودفعه الى هذا المصير المحزن كان جمالاً من غير شك يغذي تصورات صديقه وفي زعمه انها وسيلة لتمتين الصداقة مع رجل مرموق يعمل محامياً . وعند وفاته وجد محمد راغب نفسه فجأة من غير صديق يتفهمه او يتظاهر بتفهمه ، فحاول بادئ الامر ان يسد فراغه الكبير بفرض صداقته على فامتنعت بعد فترة قصيرة فالتجأ الى مريم كان يجد فيها ايام حياة جمال زوجة مثالية بالنسبة لرجل يهب نفسه للعلم ولعلها تقصمت دورها اكثر مما هي في الحقيقة . في حين كانت زوجة محمد راغب امرأة صريحة عادية التفكير تعيش من اجل بيتها واولادها . واذ كان لمريم ايام حياة جمال مجالاً لتمثيل دورها واصطناع المودة والعطف تجاه محمد راغب فان هذا المجال قد ضاع تماماً واضحى موقفها محفوفاً بالخطر ، فلم يكن بد من ان تعود الى طبيعتها وتلتزم حدودها وتمنع هذا

او ذاك من الرجال من زيارتها وان كان صديقاً حميماً قريباً الى قلبها .

ولكن الذي يؤسف له هو عدم تفهم محمد راغب لاي من هذه الحقائق حتى تفهم حقيقة نفسه ولذا كان انهيار اعصابه امراً متوقعاً وحتى وهو في المستشفى يتصور ان مريم قد خانته ودفعت به الى الهلاك وكذلك انا قد خنته ودفعت به الى الهلاك في حين ان بذرة جنونه تعهدها جمال بالانماء والسقي . ولا شك ان ما فعله كان بحسن نية وبطيبة قلب للابقاء على صداقة غير متكافئة .

للمؤلف

١ ـ حصاد الدموع	اقاصيص ١٩٥٢
٢ ـ المأمور العجوز	اقاصيص ١٩٥٣
٣ ـ قافلة الاحياء	اقاصيص ١٩٥٤
٤ ـ كاتب واردة	اقاصيص ١٩٥٥
٥ ـ الهارب من المقهى	مسرحيات ١٩٥٥
٦ ـ خيبة امل	اقاصيص ١٩٥٦
٧ ـ سعيد افندي	اقاصيص ١٩٥٧
٨ ـ الخالة عطية	قصة طويلة ١٩٥٨
٩ ـ في خضم المصائب	اقاصيص ١٩٥٩
١٠ ـ الست حسيبة	مسرحية ١٩٥٩
١١ ـ هارب من الظلم	اقاصيص ١٩٦٠
١٢ ـ ليلة مزعجة	اقاصيص ١٩٦١
١٣ ـ خبز الحكومة	اقاصيص ١٩٦١
١٤ ـ زوجة المرحوم	قصة طويلة ١٩٦٢

قريبـــا

☆ اديب من بغداد	مسرحية ذات اربعة فصول
☆ محكوم بالاعدام	مسرحية ذات فصلين

مطبعة الوفاء ـ بغداد ت ٨٨٨٢٠